

العمائم تيجان العرب

د. غيثان بن علي بن جريس

العمـائم مفرد عمامة من الألبسة الخاصة بالرجال، وهي اسم لما يعقد على الرأس ويلوى عليه من صوف أو قطن أو كتان أو نحو ذلك، وقد لبسها العرب في جاهليتهم واختصـوا بهـا، ومن هنا جاء القول المشهور «العمائم تيجان العرب»[١] ويقصد بذلك أن العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك، ويبدو أن العرب في الجاهلية لم يلبسوا جميعا العمائم وأنما ليسعها رؤساؤهم وساداتهم فقط، على حين أنـه كان عامـة الأفـراد في البـوادي يسيرون مكشـوفي الرأس، وعنـدمـا يسودون أحدا عليهم - أي يجعلونه سيدا فيهم - ألبسوه عمامة حمراء، أو التاج كما سموها، أو العصابة[٢]، ومن هنا قالوا رجل معصوب أو معمم أي مسود، قال عمرو بن كلثوم:

وسـيـد معـشـرٍ قد عصبـوه
بتـاج المـلك يحـمي المـحـجـريـنـا

ومن هذا البيت يتضح جعل السيد أو الملك معصبا، لأن التـاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسهـا، وقـد عثـرنا على أسماء أشخاص عدة تسموا بـ (ذو التاج) في عصر الجاهلية[٣]، منهم:

١ - أبـو أحيحـة، سعيـد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وكان من وجوه قريش، ولم يدرك الإسلام، وقيل عنـه إنـه إذا اعتم لم يعتم معـه أحـد من بني عبـد شمس[٤]، ومن شعره بعض الأبيات التالية:

وكـان أبـو أحـيـحـة قد علمـتـم
بمـكـة غير مهـتـضـم دمـيـم
إذا شد العـصـابـة ذات يوم
وقـام إلى المـجـالس والخـصـوم

٢ - لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم، من ولده كعب بن سوار بن بكر بن عبد بن ثعلبة بن سليم بن ذهل بن لقيط ابن الحارث بن مالك، قاضي البصرة لعمر بن الخطاب، قتل يوم الجمـل بين الصفـين وهـو يدعـو كلا الفريقين إلى الإمساك عن القتال[٥].

٣ - حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، كان على بني بكـر في حروبهم مع المناذرة في عهد المنذر بن ماء السمـاء (٥٠٥ - ٥٥٤م) ومن ولده هاني بن مسعـود الشيبـاني صاحب يوم ذي قار، والمبلد الخـارجي أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور[٦].

٤ - هوذة بن علي بن ثمامة من بني مرة بن الدؤُل الحنفي، جاء عنه أنه ذهب إلى كسرى مع جماعة من قومه، وأنه قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ[٧].

وممن وردتنا عنه الأخبار أنه لبس التاج الأشعث بن قيس ملك كندة، الذي كان يُحيًّا بتحية الملك ، فلما أسلم بعـد ارتداده، زوجه الخليفة أبو بكر الصديق أخته أم فروة بنت أبي قحافة فتواضع بعد التكبر وتذلل بعد التجبر[٨].

وذو الكـلاع ملك حمير ذُكر أنه قدم على أبي بكر في عشيرته وقومه وعليه التاج، فلما رأى لبس أبي بكر قال ما ينبغي لنـا أن نفعـل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزع لباسه الأول وتشبه بأبي بكر الصديق.([٩]).

وقد عرفت العمائم عند فرسان العرب في المواسم، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ وذي المجاز، وذي المجنة، وكان البعض من الجاهليين يتقنع بالعمامة لأنهم كانوا يكرهون أن يُعرفوا من قبل أعدائهم([١٠]).

ولما كانت العمامة من ألبسة العرب القديمة، وصفة خاصة من صفات أشرافهم وساداتهم، لذا وجدنا الرسول (صـلى الله عليـه وسلم) يحث على استخدامها ويشيد بلبسهـا، فينسب إليـه (صــلى الله عليـه وسلم) قوله «**العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوا العمائم وضع الله عزهم**»([١١])، ويذكر أيضا عن الأحنف بن قيس، وهو من رؤساء تميم في البصرة، أنه قال: لا تزال العرب عربا مالبست العمائم وتقلدت السيف، ولم تعد الحلم ذلا ولا التوهب فيما بينها ضعة.

ومن تأييد الإسلام للبس العمامة أنه لم يجعلها من ملابس البشر فقط، بل جعلها من ملابس الملائكة أيضا، ففي معـركـة بدر أخبـر النبي (صلى الله عليه وسلم) المسلمـين بأن الله أرسـل إليهم المـلائكة وهم يلبسون العمائم البيض، وقيل العمائم السود والصفر([١٢]).

وللعمـامـة أسماء عدة، وأكثر هذه الأسماء، وصلت إلينا في بعض كتب التراث الإسلامي، عن العهد الجاهلي وكذلك العهود الإسلامية المختلفة، ومن هذه الأسماء، مايلي:

١ ـ السِّب، وهي في الأصـل شقـة كتان رقيقة، سميت باليانس، ولعل بعض العمائم تصنع منها، ثم غلب الاسم عليها جميعا،([١٣])، وقيل كان الزبرقان بن بدر([١٤]) يصبغ عمامته بصفرة، فذكره أحد الشعراء بقوله([١٥]):

واشـــهـد من عوفٍ حلولًا كثـيرة
يحـجـون سبَّ الزبـرقـان المـزعفـرا

٢ ـ المشوذ وجمعها مشاوذ، ويقال فلان حسن الشيذه أي حسن العمـة، وقيـل تشـوذ الرجـل واشتاذ إذا تعمم، وشوذته تشويذًا إذا عممته، ويرجع أصل استعمال الكلمة إلى قول القـائـل شوَّذت الشمس إذا مالت للمغيب وقد غُطيت بالغيم،

واتخـذ الاهتمـام بالعمـائم مظهرا آخر في العصور الإســلامية الوسطى، وكان ذلك المظهر هو تعظيم كورة العمامة وتطويل الطرف المتدلى منها بعد لفها على الرأس، ويـطلق على هذا الطرف عذبه، واعدوا ذلك أهيب وأوقر، يذكـر ابن بطوطة أثنـاء زيـارتـه للاسكنـدرية أنه رأى قاضيها، عماد الدين الكندي، وكان إماما للمسلمين في الجُمع والجماعات، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد، وقد أبـدى ابن بطوطه تعجبـه منها حيث قال بأنه لم ير في مشارق الأرض ومغاربها أعظم منها، وذلك لأنه رأى هذا القاضي في صدر محراب وقد كادت عمامته تملأ المحراب([٣٢]).

ولقـد أقر بعض الفقهاء جواز لبس العمائم بأحجام مختلفة حسب زمان ومكانة لابسها، وعادة أهل بلدة فإن خرج عن المألوف في بلده فإن لبسها يصبح مكروها، كما أن بعضهم جوز تكبير العمائم لكي تصبح أداة تعريف للابسهـا وخصـوصـا رجال الفقه والعلم، حتى يستدل عليهم عامة الناس فيستفتونهم ويسترشدون بهم في أمور دينهم([٣٣]).

والملاحظ في لبس العمائم عند الأدباء والفقهاء والعلماء من الناس بصورة عامة أنهم يميلون إلى إطالة العمامة وتكبير دورتها بالرغم مما يلحقهم من أذى والتكلف أحيانا في سبيـل الظهور بمظهر الهيبة والوقار في أعين الناس؛ وأما من عمد من العلماء إلى تصغير عمامته، فإنه يكون

أشبه بالشاذ في سلوكه الاجتماعي، ولهذا لا نجد أمثلة كثيرة للذين صغروا عمائمهم أمثال العالم النحوي أبي عبدالله محمد بن ابراهيم النحاس الذي اشتهر بدينه وصدقه وعدالته ولأخلاقه هذه كان يرى أن من الدين نبذ الكلفة في الملابس لذا صغر عمامته(٣٤).

ولم تكن العمائم ذا لون معين، وإنما تعددت ألوانها، فمنها ماكان أسود أو أبيض أو داكنًا أو أحمر، أو أصفر إلى غير ذلك من الألوان، وأكثر العمائم شيوعًا هي السوداء وقد لبسها النبي (صلى الله عليه وسلم) فشوهد يخطب ذات يوم وعليه عمامة سوداء(٣٥)، وكذلك شوهد في عام الفتح وعليه عمامة سوداء(٣٦)، وممن لبس العمائم السود علي بن أبي طالب، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد ابن المسيب ومعاوية بن أبي سفيان، وأبو موسى الأشعري، ومحمد بن الحنفية(٣٧)؛ وفي عصر بني العباس كان السواد شعارهم ومن جملة الملابس الرسمية، لذلك انتشر لبس العمائم السود بين علية القوم وعامتهم.

أما العمائم البيض فيروي ابن سعيد، أسماء لبعض من لبسها، أمثال: سالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، والشعبي، وسعيد بن جبير(٣٨)، أما الدكناء فقد لبسها معاوية بن أبي سفيان في المدينة(٣٩)، ويروي العصامي أن عمرو بن العاص كان يلبس عمامة حمراء(٤١).

وقد لبس الناس العمائم الصفر وكانت تصنع وتصدر من مدينة هراه في بلاد خراسان، لذلك يقال لمن لبسها لقد هرى عمامته(٤١) ولبست العمائم المزبرقة، أي المصبوغة بالزعفران، وقيل إن سبب تسمية الحصين بن بدر، بالزبرقان، هو لبسه عمامة مزبرقة بالزعفران(٤٢).

وفي العصر العباسي المتأخر شاع لبس العمائم القصب الكحلية، وأصبحت تعطي في الخلع لتشريف الأمراء وقادة الجند، ومما ذُكر عن ألوان العمائم لم نعثر على استخدام العمائم ذات اللون الأخضر خلال العصور الإسلامية، سوى إشارة واحدة في عهد الخليفة العباسي المأمون، وسبب ذلك أن المأمون عندما اختلف مع أخيه الأمين، عمد إلى التقرب من العلويين، فأعطى ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا العلوي وتَزَيَّ بالزي الأخضر شعار العلويين، سنة ٢٠١هـ، ثم أمر أرباب دولته باتباع زيه، ولكن مالبث أن دبر قتل ولي عهده العلوي، ثم خلع الخضرة ولبس السواد شعار العباسيين، ولم ترد إلينا معلومات توضح شيئًا عن شعار العلويين، الأخضر، ولا ندري هل يشمل الملابس جميعها بما فيها العمائم، أو أنه يقتصر على جزء معين من اللباس والراية؟ ولكننا وجدنا في العهد المملوكي في بلاد مصر والشام أن السلطان شعبان بن حسن قد أمر سنة ٧٧٣هـ أن يجعل الأشراف في عمائم خضراء بارزة، وذلك تعظيمًا لقدرهم وليقابلوا بالقبول والاحترام من عامة الناس، ويمتازوا عن غيرهم في هذا المجال، وقد أنشد الشعراء في هذه المناسبة بعض الشعر(٤٣). فقال الأديب أبوعبدالله محمد بن جابر الأندلسي، صاحب شرح الألفية، المشهور بالأعمى البصير:

جعلوا لأبناء النبي علامة
إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم
يغني الشريف عن الطراز الأخضر

ومن شعر الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقي قوله:

أطراف تيجان أتت من سندس
خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها
شرفًا ليفرقهم من الأطراف

وفي نهاية الأمر أصدر السيد محمد الشريف باشا مصر سنة ١٠٠٤هـ أمرًا بجعل العمامة كاملة ذات لون أخضر للأشراف(٤٤).

وخلاصة القول، إن العمامة من الألبسة العربية القديمة التي عرفت عند الجاهليين، والتي كان لها منزلة عظيمة لدى أشراف القوم وسادتهم، بل وكان ينظر إلى من يرتدي العمائم نظرة إجلال واحترام. وعندما جاء الإسلام حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على لبسها وارتداها هو بنفسه ثم لبسها الصحابة من بعده وتَتَابَعَ التابعون وعامة الناس في القرون الإسلامية المختلفة على لبس العمائم التي لها فوائد عديدة، أشار إلى بعضها أبو الأسود الدؤلي. ولم تكن العمائم ذات نوع ولون ومستوى واحد، وإنما كانت تختلف في نوعية القماش الذي صنعت منه، فمنها الجيد والرديء والمتوسط، ومنها أيضا الألوان السوداء والحمراء والبيضاء وغيرها من الألوان المختلفة، ثم أيضا لكل نوع من العمائم فئة من الناس خاصة بها، فالعمائم المصنوعة من الوشي أوالحرير أو الأقمشة الجيدة النوعية، لا يستطيع استخدامها إلا ذوو الأحوال الاقتصادية الجيدة، كالتجار وأصحاب الأموال وعلية القوم في المجتمع، إلى جانب الخلفاء والوزراء والأمراء وغيرهم من رجال الدولة.

وكان اسم العمامة هو الاسم الشائع في مختلف العصور وفي جميع أجزاء الدولة الإسلامية، إلا أنه أيضا ظهر بعض الأسماء المحدودة الانتشار والتي تطلق على العمامة. ولكون العمامة تزيد من يلبسها وقارًا واحترامًا بين الناس، لهذا كان الناس يحرصون على لبسها، وخصوصا سادة القوم وأصحاب العلم والأدب والفقه، بل ويعملون على الزيادة في أحجامها، والتفنن في طريقة لبسها، فقد تلف على الرأس أو تسدل على الخدين والصدر أو على الظهر، أو تربط بعد وضعها على الرأس من تحت الذقن.

ولأهمية العمامة كلباس عربي قديم، وتسميتها باسم «تيجان العرب» فقد ذُكرت في كتب التراث المختلفة، كأسفار الحديث والسير والأدب والتراجم والتاريخ والدواوين الشعرية وغيرها من المصادر الإسلامية المبكرة، والإشارة لها في مثل هذه الفروع من كتب التراث الإسلامي لم يكن تحت عنوان معين ومحدد عن العمامة أو العمائم، ولكن ذكرها جاء متناثرا في بطون الكتب الإسلامية المختلفة؛ وقد وفق الله عددا من الكتاب المسلمين فجمعوا لنا معلومات قيمة عن بعض الألبسة العربية، كالعمامة، وفي كتب مخصصة لهذا الموضوع أمثال: أزهار الكمامة في أخبار العمامة، ونبذة من ملابس المخصوص بأسرار الإمامة، لأبي العباس أحمد بن محمد المقريُ المغربي المالكي، والدعامة في أحكام سنة العمامة، لمحمد بن جعفر الكتاني. والموارد المستعذبة بمصادر العمامة والعذبة، لمحمد بن عبدالله حجازي القلقشندي. وشارح الشفا الثمامة في صفة العمامة، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي.

وبهذا فالعمائم تيجان العرب، فهي لباس عربي أصيل وتراث إسلامي عريق، عرفت عند العربْ منذ العصر الجاهلي واستمرت معروفة ومازالت تستخدم عند كثير من المسلمين في يومنا هذا، خصوصا في بلاد شبه الجزيرة العربية، وبعض أجزاء متفرقة من العالم الإسلامي.

الحواشي

(١) انظر، أبو نصر الحسن الطبري. **مكارم الأخلاق** (طهران، ١٣٧٦هـ) ص ١٣٧؛ أبو عثمان عمرو الجاحظ. البيان والتبيين. تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة، ١٩٦٠م) جـ٣، ص ١٠٠.

(٢) جمال الدين محمد بن منظور. لسان العرب (بيروت، ١٣٧٤هـ) جـ١، ص٦٠٦.

(٣) مجد الدين محمد الفيروزابادي. القاموس المحيط، ط (١٩١٣م) جـ١، ص١٨٠.

(٤) الجاحظ، البيان، جـ٣، ص ٩٧

(٥) انظر أبو محمد على بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ٣٨٠

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٣، ٣٢٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣١١.

(٨) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي. مشاكلة الناس لزمانهم (بيروت، ١٩٦٢م)، ص١٠

(٩) المصدر نفسه

(١٠) لم يكن التقنع عن الأعداء سائدا على جميع الناس في الجاهلية، وإنما كان البعض منهم لا يبالي، وقد يذهب في الأسواق غير مقنع بعمامته، أمثال أبي سليط طريف بن تميم بن نامية، الذي كان عليه ثأر في الجاهلية، ويذهب خارج منزله متنكرا في شخصيته، حتى رآه أعداؤه في سوق عكاظ فقال متحديا

أو كلما وردت عكاظ قبيلة
بعثوا إلى عريفهم يتوسم
فتوسموني إنني أنا ذاكم
شاك سلاحي في الحوادث معلم
تحتي الاغر وفوق جلدي نثره
زغف ترد السيف وهو مثلم
ولكل بكري إلى عداوة
وأبو ربيعة شانئ ومحلم

ولكن أعداءه بعد تعرفهم عليه سهل عليهم الانتقام منه وقتله.

انظر الجاحظ، البيان جـ٣ ص ١٠١

(١١) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ١٣٧.

(١٢) المصدر نفسه؛ أنظر أيضا، محمد بن جعفر الكتاني. الدعامة في أحكام سنة العمامة (دمشق، ١٣٤٢هـ) ص ٨٤.

(١٣) ابن منظور، اللسان، جـ١، ص ٤٥٦.

(١٤) وهو الحصين بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن زيد مناه، خير الدين الزركلي. الأعلام، قاموس تراجم (بيروت، ١٩٨٠م) جـ٣، ص٤١.

(١٥) الجاحظ، البيان، جـ٣، ص ٩٧.

(١٦) ابن منظور، اللسان، جـ٣، ص ٤٩٧، والتساخين هنا يقصد بها الخفاف

(١٧) ابن منظور، اللسان، جـ١، ص ٦٠٦.

(١٨) المصدر نفسه، جـ٥، ص١٥٥.
(١٩) الجاحظ، البيان، جـ٣، ص ١٠٠: أبو محمد عبدالله بن قتيبة، عيون الأخبار (القاهرة، ١٩٢٥م) جـ١.
(٢٠) انظر، الجاحظ، البيان، جـ٣، ص ١٠٥ـ١٠٦.
(٢١) انظر، صالح أحمد العلي، «الأنسجة في القرنين الأول والثاني» مجلة الأبحاث، جـ٤، سنة (١٤) (بيروت، ١٩٦١م) ص ٥٥٠ وما بعدها؛ وللعلي أيضا «الألبسة العربية في القرن الأول الهجري» مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١٣ (بغداد، ١٣٨٥هـ) ص ٤١ وما بعدها.
(٢٢) سليمان بن الأشعث أبو داود. سنن المصطفى (القاهرة، ١٩٥٢م) جـ٢، ص٢٧٦: أبو عبدالله محمد بن ماجه سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة، ١٩٥٢م) جـ٢، ص ١١٨٦.
(٢٣) أبو داود، سنن، جـ٢، ص ٢٧٧.
(٢٤) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ١٣٨.
(٢٥) انظر، أبو عبدالله الزبير بن بكار. جمرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر (القاهرة، ١٩٨١م) جـ١، ص ٢٢٨: شمس الدين محمد الذهبي. تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (القاهرة، ١٣٦٨هـ) جـ٣ ص٣٥.
(٢٦) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (ليدن، ١٩٠٤م) جـ٥، ص ١٠٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٠، جـ٦، ص ١٨٢، ١٩٧.
(٢٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ٣، ص ٤٦: أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي (ليدن، ١٨٨٣م) جـ٢، ص ٢٨٤.
(٢٨) ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص ١٨، جـ٦، ص١٧٦..
(٣٠) هلال الصابي، رسوم الخلافة (بغداد، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) ص٩٦: ولم يكن الاحتقار والعقاب يلحق فقط بمن يخلع عمامته في دار الخلافة، وإنما أغلب فئات المجتمع كانت ترى أن خلع العمامة، وترك الرأس مكشوفا عار وعيب كبير على من يفعل ذلك، بل إن العلماء والفقهاء والقائمين بالوعظ والإرشاد والتدريس كانوا لا يسمحون لأي شخص يحضر مجالسهم وهو حاسر الرأس وغير مرتد للعمامة.
(٣٠) الصابي، رسوم الخلافة، ص٧٨، ٩٢.
(٣١) القاضي الرشيد بن الزبير. الذخائر والتحف (الكويت، ١٩٥٩م)، ص ٢١٥،٢٢٩.
(٣٢) ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) جـ١، ص٣٨.
(٣٣) الكتاني، الدعامة في أحكام سنة العمامة، ص ٧٦، ٧٧، ٧٨.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٥٣، ٩٢.
(٣٥) أبو داود، سنن، جـ٢، ص ٢٧٦؛ ابن ماجة، سنن، جـ٢، ص ١١٨٦.
(٣٦) المصدر نفسه.
(٣٧) ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص ١٨، ٩٣؛ جـ٥، ص٥، ٨٤، ١٠٢؛ جـ٦، ص٤٩، ٨٣؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ٣، ص٤٦؛ اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٢٧٤.
(٣٨) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ١٠٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٦١، ١٩٤؛ جـ٦، ص١٧٦.
(٣٩) محمد عبدالله بن قتيبة. الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني (القاهرة، ١٣٨٧هـ) جـ١، ص١٥٩.
(٤٠) عبدالملك بن حسين العصامي. سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي (القاهرة، ١٣٨٠هـ) جـ٣، ص ٥٦٠.
(٤١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ١، ص ٢٩٨.
(٤٢) الجاحظ، البيان، جـ٣، ص ٩٧؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص١٧٦.
(٤٣) الكتاني، الدعامة في أحكام سنة العمامة، ص ٩٥ـ٩٧.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.